

الأعراف بقبيلة الزكارة من خلال كتاب:

**Une tribu zénète anti-musulmane au Maroc (Les Zkara)<sup>1</sup>**

دراسة نقدية

**The customs of the Zkara tribe through a book:**

**Une tribu zénète anti-musulmane au Maroc**

**(Les Zkara) Critical study**

عماد اللبي

وزارة التربية الوطنية (المغرب)

imad.labbi@gmail

| ملخص:                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                       | معلومات المقال                                                                                                                                                                                 |
|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| تعتبر الكتابات الاستعمارية من بين المصادر العلمية المهمة التي لا غنى لأي باحث في تاريخ المغرب عنها، وخصوصا ما يتعلق بالدراسات الإثنوغرافية لسكان البوادي والمدن على حد سواء، غير أن أهميتها لا تعفي الباحث الموضوعي من التدقيق فيها ونقدها والتحقق مما ورد فيها، ذلك أن الأهداف الاستعمارية غالبا ما تطفو على صفحاتها أو تتخلل سطورها. يعد كتاب موليراس من بين الكتابات الاستعمارية التي تستدعي من الباحث التسليح بقدر كبير من الحيطة والحذر، وإعمال دائم وستمر لآلة النقد، فهو لم يتوانى أثناء تناوله لقبيلة الزكارة عن الحكم عليها بالكفر والإلحاد، وبنى على حكمه هذا أعرافا أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها تتصف بالغرابة، وهي أعراف ترتبط بالزكراوي(ة) منذ ولادته إلى ما بعد وفاته، كما ترتبط أيضا بالنظام الجماعي للقبيلة، ومنها: الختان، الزواج، الطلاق، الوفاة، الإرث، القانون الجنائي، وظيفة الرسمى (القادة الروحيين لقبيلة الزكارة). | تاريخ الارسال: 2020/11/11<br>تاريخ القبول: 2020/11/18<br>تاريخ النشر: 2020/12/09<br><b>الكلمات المفتاحية:</b><br>✓ الزكارة<br>✓ الأعراف<br>✓ أوغست موليراس<br>✓ المغرب الشرقي<br>✓ دراسة نقدية |
| Abstract:                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                   | Article info                                                                                                                                                                                   |
| Colonial writings are among the important scientific sources that are indispensable for any researcher in the history of Morocco. Especially concerning the ethnographic studies for residents of the countryside and cities alike. However, their importance does not excuse the objective researcher from scrutinizing, criticizing and verifying what is mentioned in them, because the Colonial goals often float on its pages or permeate its lines. The book of Mouliéras is among the colonial writings that necessitate a great deal of precaution and caution from the researcher, and a permanent use of the machine of criticism. While dealing with the tribe of Zkara he did not hesitate to judge it by disbelief and atheism, and based his judgment on norms that                                                           | Received :11/11/2020<br>Accepted:18/11/2020<br>Publication:09/12/2020<br><b>Key words:</b><br>✓ Zkara<br>✓ August Mouliéras<br>✓ The customs<br>✓ Eastern Morocco<br>✓ Critical study          |

are strange. This norms are customs associated with Al-Zkrawi from his birth until after his death, as well as the collective system of the tribe, including: circumcision, marriage, divorce, death, inheritance, criminal law, and the function of the Rassma (spiritual leaders of the Zkara tribe) .

## . مقدمة:

إذا كان البحث عن الحقيقة التاريخية هدفا يحرك كل دارس موضوعي، وإذا كان التسلح بالحيلة والحذر وإعمال النقد والتمحيص أسلحة ضرورية تمكن من تجنب السقطات والزلات، فإن هذا الحذر يجب أن يكون أكبر، وآلة النقد ينبغي أن تكون أكثر صرامة، عند التعامل مع الكتابات الأجنبية التي أرخت للمغرب قبيل الاحتلال وأثناءه، والتي حاولت رسم صورة مخالفة للواقع المغربي آنذاك حتى تمنح للسلطات الفرنسية المشروعية للتدخل. غير أن ما يجب الإشارة إليه والتأكيد عليه هو أنه لا يمكن بحال من الأحوال وصف جميع تلك الكتابات الأجنبية بالاستعمارية، ووضعها في سلة واحدة، فمنها من لا تُتكرر موضوعيته ومصادقيته.

من هذا المنطلق جاءت دراستنا النقدية لكتاب موليراس، الذي تطرق فيه لقبيلة الزكارة بالمغرب الشرقي، وحاول تسليط كثير من الضوء عليها وعلى الأعراف التي كانت سائدة بها بداية القرن العشرين، خصوصا وأن الكثير مما جاء في هذا الكتاب دفعنا إلى البحث والتحقق من مدى صحة أخباره وأحكامه، والتي وجدناها من الوهلة الأولى غريبة وعجيبة. فهل ما ورد في كتاب موليراس من أعراف نسبها إلى قبيلة الزكارة حقيقة تاريخية؟ أم أنها أعراف تتحكم فيها الخلفية الاستعمارية وتغيب عنها الموضوعية؟ من أجل الإجابة عن هذه الإشكالية، وحتى تكون دراستنا النقدية دراسة علمية رصينة، عملنا أولا على جرد أهم تلك الأعراف كما جاءت في كتاب موليراس متسلحين بالأمانة في النقل، ثم حاولنا بعدها الوقوف على المصادر التي اعتمدها والرجوع إلى الدراسات التي استند إليها، قبل أن نقف في الأخير أثر تلك الأعراف في باقي الكتابات التاريخية الأخرى، سواء كانت مصدرية أو مرجعية، أجنبية أو وطنية، مدفوعين بهدف واحد ووحيد هو تأكيد ما تأكد لنا من تلك الأعراف ودحض ما لم يثبت.

## 2. تعريف قبيلة الزكارة

تقع قبيلة الزكارة شرق المغرب على بعد 25 كلم جنوب غرب وجدة، غير بعيد عن الحدود الجزائرية، تمتد بين السهلين الصحراويين تافرطا وأنجاد، على مساحة تقدر بـ 6000 متر مربع<sup>2</sup>، وتتكون في جزء كبير منها من جبل يحمل اسم القبيلة<sup>3</sup>. يحد الزكارة جنوبا بنو يعلا، وغربا بنو بوزكو، أما شرقا فتحددهم المهايا، وشمالا أنجاد، وقد خضعت هذه القبيلة للمخزن منذ حملة سنة 1876<sup>4</sup>، لتستقل نسبيا عنه بعد ذلك خصوصا بعد مساندتها لثورة الجيلالي الزرهوني<sup>5</sup>.

يتحدث الزكراويون الأمازيغية ويعملون كحراس لمطامر بني يزناسن (الطمامرة)، وغالبا ما يعيشون تحت الخيام، التي كان يبلغ عددها في بداية القرن العشرين تقريبا 1600 خيمة، بالإضافة إلى ثلاث تجمعات من المنازل المبنية. وتراوح عدد سكان القبيلة ما بين 17 ألفا و20 ألف نسمة، يمكن أن تجند منهم 3500 رجلا، ثلثهم فرسان والباقي مشاة، وهم يملكون قطيعا ضخما، وأرضا خصبة، وبساتين زاهرة<sup>6</sup>. يمثل القائد رأس التنظيم الإداري للقبيلة، يُنتخب من طرف الجماعة، ليعين بعد ذلك خليفة له، وعددا من الشيوخ بحسب تقسيم القبيلة، وقد بلغ عددهم 34 شيخا زمن القائد

رمضان ولد محمد بن رمضان، غير أن القائد غالبا ما يعين من ترشحه الجماعة لشغل تلك المناصب. انقسمت القبيلة إداريا بين عامل وجدة والقائد رمضان الزكراوي، حيث تكون الجزء الخاضع لهذا الأخير، المعروف بالزكاة الغرابية من: أولاد موسى، أهل أميطر، الرصمة، أولاد امحمد، عكن، الهراصل. أما الزكاة الشراكة التابع لعامل وجدة فضم ثلاث فصائل هي: المحافيز، أولاد توشنت، أولاد بوحساكر<sup>7</sup>. رمضان ولد محمد بن رمضان، غير أن القائد غالبا ما يعين من ترشحه الجماعة لشغل تلك المناصب. انقسمت القبيلة إداريا بين عامل وجدة والقائد رمضان الزكراوي، حيث تكون الجزء الخاضع لهذا الأخير، المعروف بالزكاة الغرابية من: أولاد موسى، أهل أميطر، الرصمة، أولاد امحمد، عكن، الهراصل. أما الزكاة الشراكة التابع لعامل وجدة فضم ثلاث فصائل هي: المحافيز، أولاد توشنت، أولاد بوحساكر<sup>7</sup>.

### 3. أعراف قبيلة الزكاة حسب موليراس

تناول موليراس في كتابه قبيلة الزكاة من جميع الجوانب، الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وألصق بها مجموعة من الأعراف التي انفردت بها دون غيرها من القبائل المجاورة لها، رغم التفاعل الدائم والتأثير المتبادل بينها، ومن أهم هذه الأعراف نجد:

#### 1.3 من الولادة إلى الختان

يشير موليراس إلى أن الزكراويين لم يولوا اهتماما لجنس المولود الجديد سواء كان ذكرا أم أنثى، وإن كانت ولادة الذكر تستلزم إطلاق الزغاريد وطلقة بندقية أو طلقتين إعلاما بولادته<sup>8</sup>، ويمنع تعليم الطفل الزكراوي القراءة والكتابة باللغة العربية (لغة القرآن)، لأن ذلك كان يمثل بالنسبة لهم جريمة شنعاء، وهو مع ذلك يحظى بتربية صارمة تجعله يألف قول الحقيقة دائما، مهما كانت الظروف، الشيء الذي جعل أهل الدهرا يعتبرون "كلمة الزكراوي ذهب"<sup>9</sup>.

يزعم موليراس أن أغلب الزكراويين غير مختونين، وأن ما دفع البعض منهم إلى ممارسة الختان، الذي لا تقام بمناسبته أية مراسيم أو احتفالات، هو التقية والخوف من افتضاح أمرهم بين المسلمين،

الشيء الذي ما يفسر اهتمامهم الكبير بحمل جنث قتلهم معهم بعد انتهاء المعارك التي كانت تنشب بينهم وبين بعض القبائل المجاورة<sup>10</sup>.

### 2.3. الزواج

تحدد مفهوم الزواج عند الزكارة في إطار علاقات داخلية، ذلك أنه كان يُمنع الزواج من خارج القبيلة، وخصوصا ممن يدين بدين الإسلام، حيث اعتبر هذا الفعل بالنسبة إليهم جريمة تمس بتماسك المجتمع الزكراوي، كما حرمت مسألة تعدد الزوجات واتخاذ الإماء والمحضيات، فيكتفي الزكراوي بزوجة واحدة فقط، يشترط فيها ألا تكون أمه أو أخته، أما باقي الزوجات فمسموح بها، بين الأخوال والأعمام وبنات إخوانهن أو أخواتهن، وبين الأخ وأخته من الرضاعة<sup>11</sup>.

كان الشباب والشابات يتمتعون بحرية اللقاء والتحدث مع بعضهم البعض في الحقول، وسرعان ما تنشأ علاقة حب بين اثنين، يعتبران مخطوبين بمجرد إخبار والديهما، فيصبح من حقهما بعد ذلك التجول معا لوحدهما واللعب معا وتبادل القبلات حتى أمام الملاء. أما الزواج فلم يكن يتم إلا بالاستعانة بوساطة أحد الرسمى، الذي يتوجه رفقة زميل له أو زميلين مسنين عند أب الفتاة للتقدم بطلب الزواج، يستشير الأب ابنته فإذا ما وافقت يخبر الرسمى بذلك، ويحدد هذا الأخير بنفسه قيمة المهر الذي يجب على العريس دفعه، وهو غالبا ما كان يتراوح بين 200 إلى 250 فرنكا إذا كان العريس فقيرا، وبين 500 و1500 فرنكا إذا كان غنيا<sup>12</sup>.

الغريب في الزواج الزكراوي، حسب موليراس، أنه لم يكن يخضع لأي طقوس دينية أو إجراءات قانونية، كما لم يكن يتطلب أية مراسيم احتفالية، فلا وجود للوليمة ولا لطلقات البنادق أو الزغاريد ولا لشهادة الشهود. يصحب الزكراوي زوجته من خيمة أبيها إلى خيمته وقتما شاء ودون ترتيبات مسبقة، حيث يكون في استقبلها فقط والدا العريس وأحيانا بعض الجيران. بعد تناول العريسين الجديدين لوجبة العشاء يرافق الزكراوي زوجته إلى المكان المخصص لنومهما، فتدخل لوحدها لتجد أمامها الرسمى الذي يبادر بسؤالها حول ما إذا كانت لا تزال تحتفظ بعذريتها أم لا. تُعرف هذه الليلة الأولى بليلة الاعتراف، وتضطر الزوجة لقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، لأنها تعلم أن كذبها على الرسمى سيعرضها لا محالة لكره واحتقار كل من في القبيلة<sup>13</sup>.

يزعم موليراس بوجود زواج غريب بقبيلة الزكارة، ذلك أنه عندما كان يولد طفل لأسرة غنية، يتم تزويجه يوم ولادته أو بعده بشهرين أو ثلاثة، من فتاة في العشرين من العمر، إذا ما رغب الأبوان في ذلك طبعاً. كانت تتم مراسيم الزواج كباقي الزوجات، ثم تأتي الزوجة إلى خيمة زوجها لتقوم بالاعتناء به وخدمته، ولا تتركه أبداً إلا عندما تريد أمه إرضاعه<sup>14</sup>.

كان يسمح للمرأة البالغة المتزوجة رسميا من طفل صغير أن تربط علاقات غير شرعية، ويحظى أبنائها سواء الشرعيين أو غيرهم بنفس المعاملة والمكانة، والأكثر غرابة أن أبنائها من خارج مؤسسة الزواج كانوا يعتبرون أبناء زوجها الذي لا يزال يرضع حليب أمه، وفي حالة وفاة هذا الأخير فهم يرثونه كما يرثه أبنائه الشرعيون. يرتبط مصير الزوجة بعد أن يكبر زوجها برغبته في الإبقاء عليها إذا ما ظلت تحتفظ ببعض نضارة الشباب، أو تطليقها والارتباط بزوجة أصغر منها سنا وأكثر منها جمالا، كما كان يُسمح لها بعد تطليقها بالبقاء تحت سقف بيت زوجها للاستمرار فقط في العناية بأبنائها<sup>15</sup>.

### 3.3. الطلاق

يصف موليراس الطلاق في قبيلة الزكارة بأنه ظاهرة نادرة، فمرات وقوعه قليلة جدا لا تكاد تزيد عن حالة واحدة كل ثلاث سنوات، وغالبا ما كان يحدث بسبب عدم تفاهم الأزواج واختلاف طباعهم. وإذا ما طلبت الزوجة الطلاق وجب عليها رد كامل المهر أو جزء منه، في حين إذا كان الطلاق رغبة الزوج فإنه لا يُلزم بدفع أي شيء للزوجة، التي يسمح لها فقط بأخذ ما تملك إلى بيت أبيها في انتظار زوج جديد<sup>16</sup>.

يدعي موليراس وجود نوع خاص من الطلاق يعرف بانفصال الأجساد، إنه طلاق غير معلن لكنه حقيقي، وأبرز من مارسه القائد رمضان الذي تزوج مجموعة من النساء طوال حياته، دون أن يكون مجبرا على طرد أي منهن، مع الحفاظ في نفس الوقت على مبدأ الزوجة الواحدة وعدم تعدد الزوجات. إن تقاطع حاجات هذا القائد السياسية ورغباته الجامحة جعلته يسن قانونا يسمح له بالانفصال عن زوجته إذا ما أراد الزواج من أخرى أكثر شبابا أو أقوى نسبا، وذلك دون تطليق زوجته السابقة.

يبقى من حق هذه الأخيرة الاختيار بين الزواج مرة أخرى أو البقاء في البيت الزوجية لتربية أبنائها والعناية بهم أو العيش مع أحدهم إذا ما استقل بمسكن خاص. وفي جميع الحالات فإن انفصال الأجساد يكون تاما، حيث تتوقف جميع العلاقات الحميمة بين الزوجين بمجرد دخول الزوجة الجديدة<sup>17</sup>.

### 4.3. ليلة الغلطة

ينقل موليراس روايتين عن ليلة الغلطة، لا تقل إحداها غرابة عن الأخرى، فينسب الرواية الأولى للمسلمين ويعتبرها مجرد تلفيق وادعاء، حيث تزعم تلك الرواية أن الزكراويين والزكراويات المتزوجين والمتزوجات يجتمعون مرة واحدة في السنة أمام مدخل ضيق لمغارة كبيرة ومظلمة، وبمجرد منحهم الإشارة لدخولها يعمد أحد الرصمى الشباب إلى غرز أصبعه في أي مكان من جسد كل من ينحني لدخولها، فإذا كان الرجل زكراويا حقيقيا فإنه يجاهد نفسه كي لا يظهر أي رد فعل، لأنه يكون على علم بهذا الاختبار.

أما إذا كان مسلماً (جاسوساً) فإنه يفضح نفسه بالصراخ ألماً، فيتم ذبحه على الفور ودفنه على عجل، ليطوى بعد ذلك الموضوع نهائياً، ولا يعود أحد للحديث عنه<sup>18</sup>.

يتبنى موليراس الرواية الثانية، ويقدمها على أنها هي الرواية الصحيحة، والتي منها جاءت تسمية هذه الليلة بليلة الغلطة، حيث يدعي أن المتزوجين من الزكارة، ذكورا وإناثاً، يجتمعون واقفين داخل مغارة على أرض مستوية تضيئها بعض الشموع، فجأة تُطفأ هذه الأخيرة ليعم الظلام، ثم يتمدد الحاضرون على بطونهم أو ظهورهم في انتظار انتهاء اختبار الحبل. يتكفل بعض الرصمى بإجراء هذا الاختبار من خلال تمرير حبال مرتفعة بحوالي متر عن الأرض ينتقلون بها من مكان لآخر، إذا ما واجه الحبل عائقاً بشرياً يتم فوراً إشعال الشموع، ويعتبر ذلك الشخص مسلماً جاسوساً يتعرض للقتل فوراً.

إذا ما مر اختبار الحبل دون عراقيل، يتم التأكد عندئذ من عدم وجود أي مسلم بينهم، فتشعل الشموع ليتبادل الحاضرون، لوقت معين، أطراف الحديث وسط ارتفاع الضحكات، قبل أن تُطفأ الشموع ويسود الظلام من جديد، فيتعمد الجميع ارتكاب الخطأ (الغلطة) بمضاجعة الرجل زوجة غيره<sup>19</sup>.

### 5.3. الإرث والملكية العقارية

يزعم موليراس أن الزكروايين كانوا يطبقون قديماً نظام المساواة في الإرث بين الجنسين، أي للذكر مثل حظ الأنثى. غير أنه منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حُرمت النساء والفتيات من هذا الحق نهائياً، فلم يعد يتم احتسابهن أثناء عملية تقسيم الميراث، وبالتالي لم تعد تأخذن أي نصيب من التركة مهما قل. غير أنه سُمح في المقابل للأرملة بالاستمرار في العيش تحت سقف بيت زوجها المتوفى لكن تحت إعالة أبنائها، في حين كان يتكفل باليتيمات والقاصرات والعازبات إخوتهن أو أخواتهن المتزوجات إلى أن يتزوجن<sup>20</sup>.

أما فيما يتعلق بمسألة الملكية العقارية للأرض، فقد كان سكان قبيلة الزكارة يعتمدون فيما مضى على القانون العرفي لتحديد الملكية الخاصة بكل فرد على حدة. لكن ومع المستجدات السياسية التي عرفتتها منطقة الريف، لجأ أعيان القبيلة إلى إثبات ملكياتهم العقارية عن طريق عقود، تكلف بتحريرها بعض "الطلبة" من اتحادية بني يزناسن<sup>21</sup>.

### 6.3. القانون الجنائي

استأثر قائد قبيلة الزكارة بجميع السلط السياسية والإدارية والقضائية، غير أنه، حسب موليراس، لم يكن يلجأ إلى استعمالها إلا نادراً، لأن الجريمة غير معروفة تقريباً لدى الزكروايين. لكن في حالة وقوعها، وخاصة جريمتي القتل أو السرقة، يتم إخبار القائد من طرف الشيخ الذي وقعت الجريمة داخل المجال الجغرافي الموكل إليه، فيعمد مباشرة إلى سجن المذنب في إحدى غرف برجه لمدة سنة أو سنتين، ثم



## عماد اللبي

يُجبر بعدها على دفع غرامة مالية للضحية أو لأهلها، ولا يطبق حكم الإعدام أبداً، بدعوى أن الدم الزكراوي نادر وثمان لا يجب إهراقه دون ضرورة حتمية<sup>22</sup>.

تضمن العرف الزكراوي قانوناً جنائياً خاصاً ببعض الجرائم، يحدد نوع الجرم وحجم العقوبة أو مبلغ الغرامة المالية المناسبة، والتي تختلف باختلاف جنس الضحية وسنها ودينها.

### الجدول رقم 01:

| نوع الجرم             | جنس الضحية وسنها | قيمة الدية أو نوع العقوبة                                 |
|-----------------------|------------------|-----------------------------------------------------------|
| القتل العمد           | امراة            | 1500 فرنك                                                 |
|                       | رجل              | 1250 فرنك                                                 |
|                       | طفل              | يعامل معاملة الكبار وحسب الجنس.                           |
|                       | يهودي            | يخير أهله بين قتل القاتل أو تحديد قيمة الدية التي يشاؤون. |
| الضرب والجرح العمديين | امراة            | 750 فرنكا                                                 |
|                       | رجل              | 625 فرنكا                                                 |
|                       | طفل              | يعامل معاملة الكبار وحسب الجنس.                           |
|                       | فقء عين          | يعتبر قتلاً، وتؤدي عنه دية القتل العمد حسب الجنس.         |
|                       | فقء عيني         | لا يهـم جنس الضحية أو سنه.                                |
|                       | كسر سن           | لا يهـم جنس الضحية أو سنه.                                |

العنوان: مقتطف من القانون الجنائي لقبيلة الزكارة.

Source: Auguste Mouliéras, op.cit, p.75.

أما فيما يتعلق بالجروح المفضية إلى العجز وبهتك العرض، فقد سن قائد قبيلة الزكارة مجموعة من القوانين، منها:

- يتكفل المذنب بإعالة الضحية وأسررتها طوال مدة العجز، وتقدر الجماعة في هذه الحالة المبلغ المالي أو المواد الغذائية المناسبة، مثلاً: فرنك من الشاي و1.25 فرنكا من السكر، وفرنك واحد من الزبدة، و5 كيلوغرامات من السميد في اليوم، ورطل من الشمع في الليلة، وخروف لكل ستة أيام.
- إذا ما سبب الجرح عجزاً وقت الحرث أو الحصاد، فإن المذنب يُجبر على دفع أجر من يعمل في حقل الضحية.

– يعاقب من هتك عرض امرأة بالزواج منها، وفي حالة رفضه يُجبر على ذلك من طرف القائد والجماعة

#### 4. نقد الكتاب

إن أول ما يركز عليه الناقد لكتاب ما هو المادة العلمية التي بنى عليها المؤلف أفكاره وأحكامه، فينظر إلى رصانتها وتنوعها، ثم إلى كيفية توظيفها ومدى التزام الأمانة العلمية في الاعتماد عليها. ولعل هذا أهم ما يؤخذ على كتاب موليراس حول الزكارة، الذي يتسم بضعف مادته العلمية، فهو لم يعتمد في تأليف كتابه إلا على الرواية الشفوية، دون أن تطأ قدماء يوما القبيلة،<sup>24</sup> حيث اكتفى بسؤال ثلاثة أشخاص كانوا يعملون بناحية وهران، وهم زكراويان وطالب من بني يزناسن عاش طويلا في قبيلة الزكارة، الشيء الذي جعل الكثير من المعاصرين له يستغربون الأخبار التي نقلها والأحكام التي أصدرها، ويقفون منها موقف المتعجب، خصوصا وأن محاولته إخراج قبيلة الزكارة من دائرة الإسلام، أظهرت بجلاء عداءه لهذا الدين.<sup>25</sup>

يُعتبر موليراس أول من تطرق إلى تلك الأعراف الغريبة التي ألصقها بقبيلة الزكارة، فلم يسبقه إلى ذلك أحد، ولو تلميحا، إذ لا نجد أثرا لأخباره عند الرحالة "دوفوكو" الذي مر بالقرب من القبيلة سنة 1884.<sup>26</sup> ولا في التقارير الفرنسية الاستخباراتية التي أكدت على أن معظم الزكراويين من مريدي مولاي الطيب (وزان)، والباقي منهم يتبعون إما زاوية القنادسة أو سيدي أحمد بن يوسف (بودعوة).<sup>27</sup> فكيف إذن تمكنوا من الجمع بين ارتباطهم بالزوايا واتباعهم لها وبين العمل بأعراف تناقض الشرع الإسلامي؟ تحفظ الكثير من المؤلفين الفرنسيين، في مطلع القرن العشرين، على الكثير من الأحكام التي جاء بها موليراس حول أعراف قبيلة الزكارة، فقد شكك فيها روني لكليرك René-Leclerc واعتبرها مسألة تحتاج إلى مزيد من النظر.<sup>28</sup> أما أوغيست برنار Augustin Bernard الذي زار القبيلة مطلع القرن العشرين، فقد ذهب إلى أن الروايات التي قدمها موليراس في كتابه مبالغ فيها.<sup>29</sup> في حين اعترف إيدمون دوتي Edmond Douité بصعوبة الجزم بكل ما يُروى عن الزكارة من أعراف، مؤكدا أن البعض منها يبدو إما خاطئا أو مشكوكا فيه أو مجرد افتراء، خاصة ما تعلق بمسألة الختان وليلية الغلطة وزواج الأطفال.<sup>30</sup> وقد حسم لويس فوانو Louis Voinot في التوجهات الدينية للزكراويين حينما أكد ارتباطهم بالإسلام وبشرعه، وبأن رفضهم الزواج من خارج القبيلة لم تكن تتحكم فيه أية خلفية دينية.<sup>31</sup>

وإذا كان إيدمون دوتي قد أكد وجود زعماء خاصين (الرسمى) كانوا يتمتعون بنوع من القدسية بقبيلة الزكارة، فإنه عاد ليشكك في وظيفتهم ودورهم<sup>32</sup>، قبل أن يأتي لويس فوانو وينزع عن هؤلاء الرسمى ذلك الطابع الكهنوتي الذي ألصقه بهم موليراس، معتبرا أنهم "مرابطون" يعود أصلهم إلى قبيلة بني عتيق إحدى قبائل اتحادية ببني يزناسن<sup>33</sup>، وهو الرأي الذي تبناه أيضا قدور الورطاسي.<sup>34</sup>



ظل كتاب موليراس، رغم كل هذه التحفظات والمؤاخذات، مصدرا لبعض الباحثين، سواء المعاصرين له أو من جاء بعده<sup>35</sup>، ممن لم يكلفوا أنفسهم عناء التدقيق والتحقيق والتمحيص، فاضحوا كحاطبي ليل يجمعون من الأخبار ما وقعت عليها أيديهم، غثها وسمينها، صالحها وطالحها. فمن هؤلاء من أعاد التأكيد على الدور الروحي للرسمي في تثبيت تلك الأعراف الغربية بقبيلة الزكارة<sup>36</sup>، وخاصة تلك التي تكرر الكفر والإلحاد<sup>37</sup>، ومنهم من أكد على ادعاء موليراس بمحاربة سكان القبيلة للإسلام<sup>38</sup>، بل وزاد في الشعر بيتا حينما حاول أن يبرر ارتباطهم بزاوية سيدي أحمد بن يوسف بحاجتهم للحماية من رد فعل المسلمين<sup>39</sup>، وأنهم كانوا يعملون جاهدين على إخفاء أعرافهم وعقائدهم عن جيرانهم الأقربين<sup>40</sup>. فكيف إذن اكتشفها موليراس من الجزائر؟

لم يقف الأمر فقط عند حدود النقل والاقتباس، بل هناك من الباحثين من استغل عدم تطرق موليراس أو عدم قدرته على تحديد السياق التاريخي لظهور تلك الأعراف الفريدة التي ضمنها كتابه، ليطلقوا العنان لخيالهم ويبنوا عليها مجموعة من التفسيرات الخاصة، من خلال وضع جملة من الافتراضات والنظريات التي لا تقوم على أي أساس علمي متين. ومنها أن العقيدة الدينية والقوانين العرفية التي ادعاها موليراس في حق الزكارة قد ترجع إلى المذهب الإباضي أو إلى دروز لبنان،<sup>41</sup> دون أن يكلف هؤلاء الباحثون أنفسهم عناء محاولة الكشف عن الظروف التي جعلت الزكراويين يعتقدون هذا المذهب أو ذاك دون غيرهم من القبائل. ثم ألم يكن من الأجدي أن يُصرف الجهد أولا لتمحيص ما جاء به موليراس في كتابه قبل الانتقال إلى طرح الفرضيات؟

## 5. خاتمة:

بناء على ما سبق، لم يعد هناك أدنى شك في أن الأخبار التي ضمنها موليراس في كتابه، وخاصة تلك التي تناولت الأعراف بقبيلة الزكارة، لا ترقى إلى مستوى الكتابة التاريخية العلمية الرصينة، ولا تتوفر فيها شروط الموضوعية والمصداقية. فلا هو اعتمد على كتابات أو دراسات سابقة، ولا هو زار القبيلة ووقف على تلك الأخبار بنفسه. إن ما يدعم استنتاجنا أكثر هو غياب أية إشارة إلى تلك الأعراف الغربية في التقارير والوثائق الرسمية الفرنسية عن القبيلة بعد احتلالها، وهي تقارير لم تكن تغفل أدق التفاصيل. لكن ما يثير الدهشة هو أن صورة الزكراوي في أعين سكان بعض قبائل المغرب الشرقي لازالت إلى الآن متأثرة ربما بما نشره موليراس، ثم ترسخ بعد ذلك في الذاكرة الجمعية لعدة أسباب، لعل من أبرزها الصراع الذي كان يطغى على العلاقة بين الكثير من القبائل المغربية المتجاورة في المجال، لدرجة أن الانتساب إلى قبيلة الزكارة قد يصل إلى حد اعتباره سبة وسببا للاحتقار والاستصغار والتمييز. ومن بين

## الأعراف بقبيلة الزكارة من خلال كتاب: Une tribu zénète anti-musulmane

الأحكام التي لاتزال عالقة في الأذهان إلى الآن حول قبيلة الزكارة اعتبارها قبيلة دون تاريخ واتهام سكانها بأكل لحوم الكلاب.<sup>42</sup>

### الهوامش:

- 1-Auguste Mouliéras: **Une tribu zénète anti-musulmane au Maroc (les Zkara)**, Augustin Challamel, Paris, 1905.
- 2-M. Le Comte de Naurois: " **Le Maroc social**", Bulletin de la Société de géographie de Toulouse, N°2, Toulouse (France), Vingt-quatrième année, 1906, p204.
- 3-"**Maroc, à la frontière algérienne**", Journal des débats politiques et littéraires, N°113, Samedi 24 avril 1897, p2.
- 4-Vicomte Ch. De Foucauld : **Reconnaissance au Maroc, 1883-1884**, Challamel et C<sup>ie</sup>, Paris, 1888, p389.
- 5-"**Maroc, à la frontière algérienne**", Op. Cit, p2.
- 6-René-Leclerc : "**Les régions Nord et Sud de la frontière Algéro-marocaine**", Congrès de l'Afrique du Nord, du 6 au 10 octobre 1908, Paris (France), 1909, p867.
- 7-عكاشة براحاب: **شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي 1873-1907**، الطبعة الأولى، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلسلة أطروحات ورسائل 3، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989، ص64.
- 8-Auguste Mouliéras: Op.Cit, p77.
- 9-ibid, pp79-80.
- 10-ibid, pp80-81.
- 11-ibid, p83.
- 12-ibid, p84.
- 13-ibid, pp85-86.
- 14-ibid, p91.
- 15-ibid, p93.
- 16-ibid, p96.
- 17-ibid, p97.
- 18-ibid, p100.
- 19-ibid, p101.
- 20-ibid, p152.
- 21-ibid, p153.
- 22-ibid, p74.
- 23-ibid, p76.
- 24-نفس الأسلوب تقريبا اعتمده موليراس في تأليف كتاب آخر عن المغرب يتكون من جزأين (Learocinconnu)، حيث كلف أحد المسلمين المنحدرين من منطقة "القبائل" الجزائرية بمهمة تجسسية امتدت لأكثر من 20 سنة.
- 25-Ariel Planeix: "**L'instrumentalisation de l'historiographie dans les processus de marginalisation des populations rurales au Maroc: Le cas des Zkara**", *Marges et marginalités au Maroc*, L'Harmattan, Paris (France), 2011, p2.
- 26-Vicomte Ch. De Foucauld: Op. Cit, p389.
- 27-H. -M. -P. De La Martinière et N. Lacroix: **Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouest africain**، Tome I, gouvernement général de l'Algérie، service des affaires indigènes, maison L. Daniel, Lille, 1896, p176.
- 28-René-Leclerc: "**La situation religieuse au Maroc**", Congrès de l'Afrique du Nord, du 6 au 10 octobre 1908, Paris (France), 1909, p823.
- 29-Augustin Bernard: **Les confins algéro-marocains**, E. Larose, Paris, 1911, p29.
- 30-Edmond Doutté: **En tribu: missions au Maroc**, P. Geuthner, Paris, 1914, pp330-331.
- 31-Louis Voinot: **Oudjda et l'Amalat**, Publication de la société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran, L. Fouque, Oran, 1912, pp187-189.

- 32-Edmond Doutté: **Magie et religion dans l'Afrique du Nord**, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1909, p46.
- 33-Louis Voinot: Op. Cit, pp187-189.
- 34-قدور الورطاسي: **بنو يزناسن عبر الكفاح الوطني**, دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976، ص ص93-94.
- 35-S.: "**The Zkara, A christian tribe in Morocco**", Bulletin of the American Geographical Society, Vol. 36, No. 6, New York (U.S.A), 1904, pp343-346.
- 36-Nehlil: "**Notice sur la Zaouia de Zegzel et ses ramifications**", Revue africaine, N°275, Alger (Algérie), quarante-troisième année, 4<sup>e</sup> trimestre, 1909, p272.
- 37-Lieutenant De Montdésir: "**Le Nord-est marocain**", Bulletin de la Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, Neuvième année, 2<sup>me</sup> trimestre, Alger (Algérie), 1905, p271.
- 38-J. Aury: "**Régions inconnues au Maroc**", Bulletin de la Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, Dixième année, 4<sup>me</sup> trimestre, Alger (Algérie), 1905, p679.
- 39-M. Bodin: "**Notes et questions sur Sidi Ahmed-Ben-Youssef**", Revue africaine, vol. LXVI, N°323-324, 2<sup>e</sup> et 3<sup>e</sup> trimestres, Alger (Algérie), 1925, p162.
- 40-Paul Odinet: "**Trois groupes de Milianah, dans le Maroc central**", France-Maroc, N°61, Rabat (Maroc), Décembre 1921, p229.
- 41-Edouard Montet:
- "**Les Zkara du Maroc, un problème religieux**", Revue de l'histoire des religions, Tome cinquante-deuxième, Paris (France), Vingt-sixième année, 1905, p423.
  - "**The Zkara, are they christians or musulmans?**", The imperial and asiatic quarterly review and oriental and colonial record, Volume XX, N°s. 39 & 40, London (England), Third series, July – octobre 1905, pp86-88.
- 42-Ariel Planeix: Op. Cit, p2.